في الكنائس الشرقية الكاثوليكية

محاضرة القاها في نادي الهيئة الكاثوليكية باللغة الفرنسية

الخوري بطرس روفائيل

٢

في اثناء سنة ١٨٢٧ ، وقعت انكلترة وروسية وفرنسة معاهدة لوندرة التاريخية . وكان من جملة قراراتها الاعتراف باستقلال الدولة اليونانية . وفي السنة نفسها غرق الاسطول التركي في « ناڤارن » ، فاحدث تخريبه ضجة عظيمة في العاصمة التركية ، وطفق الارمن الغريغوريون القاطنون المدينة يشون بالارمن الكاثوليك امام السلطان محمود الثاني : « انهم دائماً على تحفز لاشعال الثورة وانهم جاحدون يدينون بالديانة الفرنجية . » لان الديانة « الفرنجية » او الفرنسية تعني الديانة الكاثوليكية ، وما دار في خلد الشرقيين يوماً ان فرنسة والكثلكة كلمتان يمكن فصلهما . ولما كان السلطان قلقاً وخائفاً اعار الواشين اذناً مصغية ، وأوعز الى الارمن الكاثوليك بالانضمام الى الغريغوريين ، ونفى كثيراً من المرسلين اللاتين بحجة انهم جواسيس ، وطرد من العاصمة كل الكاثوليكيين ، وكان عددهم ثلاثين الفاً ، ولم يعترف بغير الكنيسة الغريغورية ، معذباً بدون شفقة من ابى ان ينضم اليها من الارمن .

لقد طفح الكيل هذه المرة . فقام الجنرال جيللنو سفير فرنسة في القسطنطينية ، وابدى من العزم والحزم ما ابدى ، لانه كان خبيراً باخلاق الترك ونفسيتهم وهدد الحكومة التركية . فسكنت شدة الباب العالي وبان

ان مخافة فرنسة كانت دائماً عنده رأس الحكمة . فبفضل حزم السفير الفرنسي وتدخل البابا لاون الثاني عشر ، همدت ثورة الاضطهاد وصدر في السادس من كانون الثاني من سنة ١٨٣٠ فرمان يدعو كل المنفيين . والحت فرنسة بطلب تحرير الارمن وسائر الطوائف المسيحية المتحدة مع رومة : ذلك لئلا تعود فتتجدد تلك الفظائع والمظالم . فرضخ السلطان واقام على الارمن الكاثوليك رئيساً عالمياً ، ولقبه بالناظر او « المرخص »

نحن نعتقد ان كلمة « كاثوليك » تتناول كل مسيحي متحد مع الكنيسة الرومانية . الّا ان اللهجة العامة في القسطنطينية كانت ، في اوائل القرن التاسع عشر ، تُقيّد معناها وتُطلقه فقط على الارمن المتحدين مع رومة وتسمي سائر الكاثوليك ، وان شرقيين ، لاتينيين . ان لهذه التسمية المشتركة ظواهر اللاشيء ، ولكن الارمن الكاثوليك استفادوا كثيراً منها .

فما هو الّا القليل حتى خلف الناظر في وظيفته المدنية كاهن اسمه آغوب تشوكوريان انتخبه الارمن الكاثوليك سنة ١٨٣١ وبعث اليه الباب العالي بفرمان جاء فيه : « انه لما لحظ جلالة السلطان ان ليس للكاثوليك الرومانيين والارمن المقيمين في مملكته من رأس خاصّ بهم ، منح الكاهن آغوب تشوكوريان لقب اسقف « الديانة الكاثوليكية » في كل انحاء مملكته . » ومن هنا بدت بوادر التلاعب بمعنى كلمة « كاثوليك » لانه ، مع ان نصّ الفرمان وبعض تعابيره تشير الى انه لا يتناول الّا الارمن الكاثوليك ، كانت مع ذلك بعض كلماته تدلّ ان ولاية تشوكوريان تمتدّ الى سائر كاثوليك المملكة العثمانية من اية طائفة كانوا .

مات تشوكوريان سنة ١٨٣٤ فانتخب عوضه مجلس الامة الارمنية كاهناً اسمه ارتين تشوخيجيان ، واستلم براءة التثبيت او الفرمان في ثالث حزيران من سنة ١٨٣٤ . ولم يختلف نصها عن نصّ براءة سالفه سوى انه قد جاء في اولها شيء جديد مهمّ وهو : « بما ان الراهب آغوب ، اسقف كل الكاثوليك الساكنين في مملكتي ، قد مات ، وبما ان الطائفة المذكورة طلبت اليّ ان اتنازل واعيّن لها بطريركاً الراهب ارتين ، وكيل انقره الذي انتخبته مكان المتوفى ،

فقد رضيت بانتخاب ارتين ورولّيته على البطريركية وعليه يجب على الاساقفة والكهنة والرهبان والعلمين القاطنين مملكتي من الطائفة الكاثوليكية ومن الطوائف الكلدانية والسريانية والملكية والمارونية ان يعترفوا بـه بطريركاً ويرجعوا اليه في كل امورهم.»

وهكذا فقد لعب الدهاء دوره ، واسترجعت كلمة «كاثوليك» معناهـا الشامل المعتاد ، واصبح رئيس الطائفة الارمنية الكاثوليكية رئيساً مدنيًا على سائر الطوائف الشرقية الكاثوليكية ، ومنحه الفرمان الشاهاني كل الانعامات الممنوحة لبطريرك الفنار وبطريرك الارمن الغريغوريين : ومع ان «المرخص» تشوخيجيان لم يكن الا كاهناً بسيطاً فقد سمّاه السلطان بطريركاً فجاءت هذه التسمية مخالفة للحق القانوني. لان لقب بطريرك لقب ديني بحت تتطلب الديانة الكاثوليكية من حامله ولاية قانونية حقيقية لا يستطيع ان يهبها احد غير رأس الكنيسة الاعلى . وبما ان البابا لاسباب يطول علينا شرحها لم يكن قد اعترف بهذا البطريرك ، اتفقوا ان يلقبوا الرئيس المـدني او المرخص الارمني على الكاثوليك «بالكاهن البطريرك» وقد حمل خلفاء ارتين هذا اللقب.

وفي تلك الاثناء ، انتُخب الاسقف الملكي مكسيموس مظلوم بطريركاً على طائفته ، فهبّ غريغوريوس السادس بطريرك الفنار لمطاردته ، واستصدر السلطان فرماناً يحرّم على الاكليروس الملكي ، تحت عقوبات قاسية ان يقبل الارثوذكس في شركته ويأمره ان يغيّر زيه المشترك بينه وبين الاكليروس الارثوذكسي . فاحدث هذا المطلب مجادلات طويلة سمّوها: «دعوى الطرابيش». ثم ارسل الفرمان الى الكاهن البطريرك كرابيد لينفّذه الى مظلوم . فانفذه هذا ونصحه ان يستعين «بالبخشيش» ، لانه وسيلة ابـدًا فعّالة في القسطنطينية ، ليحول دون تنفيذه . وفضلاً عن ذلك ، فقد كان من الممكن الفوز بفرمان آخر على شريطة ان يتدارك الامر سريعاً في القسطنطينية

لذلك لم يتمّ مظلوم . بل تذرّع بكل الوسائل ليذود عن حقوقـه حتى انه في اواخر سنة ١٨٣٧ حمل اليه بريد القسطنطينية بشرى بهيجة . وهي ان الكاهن - البطريرك الارمني ارسل يخبره انه عمل ليس فقط للحصول على فرمان

يناقض فرمان بطريرك الفنار بل ان الباب العالي اصدر براءة باسمه تجعله « مرخصاً » او رئيساً مدنيًا على الملكيين . ذلك لان الباب العالي لم يكن اعترف بعد بمظلوم ، وما كان يعرف شرعاً الّا الكاهن-البطريرك الارمني . اما الآن فقد اضحى مظلوم شخصاً رسميًا ، ورئيساً على طائفة مستقلة . الّا انه بقي متعلقاً بالكاهن-البطريرك الارمني وما كان يعتبر الّا وكيله في قضاء امور الملكيين فكان لهذا الفرمان شأن عظيم لانه الخطوة الاولى في سبيل تحرير الملكيين النهائي . امّا تاريخ الفرمان فهو ٣١ من ت ١ سنة ١٨٣٧ ، وقد حوى ٣٧ بندًا عُدّدت فيها التفويضات والانظامات المختلفة ، الممنوحة لمظلوم ولخلفائه ايضاً ولا فرق بينها وبين النعم المعطاة للبطاركة الارثوذكسيين .

واتفق ان اجتمع سنة ١٨٤٣ في القسطنطينية بطاركة الملكيين والسريان والكلدان ، وقرّ رأيهم ان يستميحوا من الباب العالي فرمانات يعترف بهم فيها بطاركة على طوائفهم . ولكن قد تضاربت الآراء في عاصمة بني عثمان فارتأى رأي البطاركة النائب الرسولي وسفير النمسة ؛ ولم يُوفقهما ان تتعلّق الطوائف الكاثوليكية الشرقية كلها في امورها المدنية بالكاهن-البطريرك . امّا الباب العالي وسفير فرنسة فلم يوافقا على فكرتهم بل رأيا ان ادارة الطوائف الكاثوليكية المدنية بتوسط واحد هي اسهل واعجل من ان يولى عليها عدة رؤساء مدنيين . ولاجل هذه الغاية عُقد في ١٢ آب سنة ١٨٤٤ اجتماع في دار البطريركية الارمنية حضره ، ما عدا الثلاثة البطاركة الآنفي الذكر ، الكاهن-البطريرك ، ورئيس اساقفة ارمن القسطنطينية ، وسبعة من وجهاء الارمن ؛ فحمي وطيس الجدال ودامت الجلسة اربع ساعات ، ثم اجمعوا كلمتهم على النقط الآتية :

اولًا على الباب العالي ان يعترف رسميًا « من الآن فصاعدًا » بالثلاثة البطاركة الكاثوليكيين المذكورين ويسلم كلًا منهم جذا فرمانًا خاصًا به . وعلى الكاهن البطريرك ان يسعى لينالهم بالطرق التي يستخدمها بطريرك الفنار ليستحصل على فرمانات لاخوته بطاركة الاسكندرية وانطاكية واورشليم .

ثانيًا يمنح كل من الثلاثة البطاركة وساماً لا يختلف رتبةً عن اوسمة البطاركة المتفضلين اليونانيين والارمن المقيمين في مدينة القسطنطينية .

ثالثاً اذا ما طلب اسقف كاثوليكي فرماناً له شخصياً يجب ان يُذكر فيه انه أُعطي له اجابةً لرغبة بطريركه وعملاً بتوسط الكاهن - البطريرك الارمني. ولا ينسب بدءُ التدخل الى الكاهن البطريرك وحده كما كانت العادة حتى الآن.

رابعاً على كل بطريرك من الثلاثة ان يقيم له ممثلاً عند الكاهن - البطريرك، ويكون له ما لسائر اعضاء مجلسه من الامتيازات.

خامساً على كل بطريرك ان يدفع كل ما يلحق ممثله من النفقات.

سادساً اذا ما حدث مشكل يهمّ كل الكاثوليكيين فلا يدفع الممثل الا ما يلحق طائفته من النفقات.

ثم سجّلوا هذه البنود في القنصلية الفرنسية في ١٥ آب سنة ١٨٤٤. ومنها يبدو جلياً ما عنى ان ينضي اليه هذا الترتيب.

اجل انه لم تمنح كل طائفة حقها من الاستقلال النهائي غير ان الباب العالي لم يعد يعتبر الكاهن-البطريرك رئيساً وحيداً على كل الطوائف الكاثوليكية الشرقية، وان استمر يعالج حتماً كل امورها. هذا ولم تستقرّ الحال على ما كانت عليه بل ان مظالماً توصّل قبل الجميع الى ان يسمى رئيساً مدنياً مستقلاً تمام الاستقلال عن الكاهن-البطريرك. وقد ساعدته الظروف على ذلك لان الدول الاوربية، وخصوصاً روسية، كانت تقبل بسهولة كل من يطلب اعتناق جنسيتها، فكثر الطلّاب والمتجنسون بالجنسيّات الغربية حتى اضطرّ الباب العالي في حوادث لبنان سنة ١٨٤٠ و سنة ١٨٤٥ ان يوقف هذا التيار فأمر ان يُحصى عدد المتجنسين؛ ثم جزم، لاشهر قليلة خلت، ان لا يقرّ بعد بتلك الجنسيّات ولا يعتبرها. فاستغنم الفرصة البطريرك مظلوم واقنع الحكومة التركية بضرورة تعلّق الكاثوليك الوطنيين بها تراً، وقضاء امورهم رأساً، فنجح بعد جهود كثيرة ونال فرماناً خصيصاً به يخوّله تمام الاستقلال عن الكاهن-البطريرك الارمني. واستلم الفرمان في ٧ كانون الثاني من سنة ١٨٤٨، وكان نصه يحاكي براءة سنة ١٨٣٧ الّا انه يعترف باستقلال الملكيين المدني النهائي وفي الوقت نفسه صدرت براءتان للبطريركين الآخرين: بطريرك السريان، وبطريرك الكلدان، تقرّانهما رئيسين مدنيّين على طائفتيهما المتميّزتين، وتشترطان عليهما دوام تعلقهما بالكاهن البطريرك وتمثيله لهما في قضاء امور ملتيهما.

وبعد ذلك بقليل ، وقبل ان يصدر الخط الهمايوني لسنة ١٨٥٦ تمتع السريان والكلدان الكاثوليكيون بالرعاية التي منحت اولاً لمظلوم ، وفازوا مثله بتحريرهم المدني التام.

اما الموارنة فكانوا على خلاف ما تقدّم . اجل ان السلطان كان يذكر الموارنة في بعض فرماناته التي اصدرها كأنهم يتعلقون او يجب عليهم ان يتعلقوا بالكاهن-البطريرك الارمني في امورهم المدنية ، ويرغب اشدّ الرغبة في ان يقبل بطريركهم اسوة بسائر البطاركة براءة التولية ، وقد شاء ان يجبره على ذلك. ولكنه لم يفلح لان بطاركة الموارنة الساكنين جبل لبنان المتمتع بالاستقلال الداخلي كانوا يرفضون دائماً هذه المنح التركية . وكان اساقفة الموارنة حتى في المدن التابعة للولايات التركية : كبيروت وطرابلس وحلب والشام يعالجون امور رعاياهم دون ان يكون معهم فرمانات تخوّلهم ذلك.

ان العمل المقضي كثيراً ما كان يقوم مقام الشريعة في تركيا . وكان موقف بطاركة الموارنة الاستثنائي حجة تقليدية يتذرّع بهم خصومهم في القرون السادس عشر والسابع عشر والثامن عشر للايقاع بهم ، فيوشون بهم ان ليس لهم فرمانات ، وان لهم علاقات متصلة بالدولة الفرنسية والبابا ، وكان الباب العالي يستثمر الفرص لاختلاس الدراهم ، فيتظاهر بالجهل ، ، ويعجب للامر ، ويأمر بالتفتيش ثم يجبر الموارنة وبطريركهم المجرّم بدفع النفقات الباهظة.

الخلاصة

ان الكنائس الشرقية قد تحرّرت بتدخل بابوات رومة ومطالبة فرنسة وحزمها فوجب اذن ان نستفيد من حريتنا لنبعد عنّا كل مشادّة وسوء تفاهم فنتحد . وباتحادنا نحقق رغائب مخلصنا وهي ان يرى كل المسيحيين مجتمعين في حظيرة واحدة وتحت سلطة راعٍ واحد.

ان كلمة « كاثوليك » قد ساعدت كثيراً على تحرير الكنائس الشرقية المدنيّ كما قدّمنا ، وهي لكم ، يا سادتي اعضاء النادي الكاثوليكي ، كما

تحالفتم ان تجتمعوا تحته كلكم ، من اية طائفة او ملة كنتم ، وبانضمامكم هذا يسهل عليكم ان تجددوا وراء غايتكم وهي ان تحبوا الله وتدافعوا عن كنيسته.

ليس في الكنيسة الكاثوليكية ، سادتي ، من احزاب . قال بولس الرسول في رسالته الاولى الى اهل كورنتس : «قد أُخبرت عنكم ايها الاخوة ان بينكم خصومات اعني ان كل واحد منكم يقول انا ليولس او انا لابلوس او انا للصفا .. فلا يفتخرن احد بالناس فان الكل هم لكم بولس وابلوس والصفا وانتم للمسيح والمسيح لله.»

ثم ان في الكنيسة الكاثوليكية تساوياً لجميع الشعوب . قال القديس بولس : «انكم كلكم قد لبستم المسيح بالمعمودية وليس يهودي بعد ولا يوناني ، لا عبدٌ ولا حرٌ ، لانكم كلكم واحد في المسيح يسوع» وشرح البابا بنديكتوس الخامس عشر قول الرسول هذا قال : «ان كنيسة يسوع المسيح لما لم تكن لا لاتينية ولا يونانية ولاصقلبية بل كاثوليكية ، كان انها لا تفرق بين ابنائها وكان ابناؤها من يونان ولاتين وصقالبة او ممن ينتمون الى طوائف اخرى ، متساوين رتبةً ومقاماً امام الكرسي الرسولي.»

وبما اننا كاثوليك ، يجب ان يكون لنا روح واحد ونفس واحدة ، وذلك طبيعي لا بل ضروري لنا لان لنا مخلصاً واحداً وهو سيدنا يسوع ، وتعليماً واحداً وهو الانجيل المقدس ، وغاية واحدة وهي السماء.